

سلاماني عبد القادر*¹، العيهار محمد²

¹ جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، abdelkader.slamani@univ-bechar.dz

² جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، mohammed.laihar@univ-bechar.dz

تاريخ الإرسال: 2021/10/05. تاريخ القبول: 2022/03/17 تاريخ النشر: 2022/05/01

ملخص: تناولت المجلة الإفريقية (Revue. Africaine) المتخصصة في الأعمال التاريخية الجزائرية والدراسات الأثرية جانبا مهما من التاريخ الثقافي واللغوي في الجنوب الغربي الجزائري ، وجاءت سلسلة هذه الأعمال المعرفية لتلقي الضوء على الواقع الثقافي الذي كان موجودا فعلا الأمر الذي أثار اهتمام الباحثين الفرنسيين في محاولة معرفة أصول المجتمعات الصحراوية التاريخية والاجتماعية، والتقرب من فهم أبعادها السوسيو ثقافية لإعادة تفعيلها ضمن المشروع الاستعماري.

ورغم القيمة المصدرة العلمية لما احتوته من معلومات سردية وصفية إلا أنها صيغت من رؤية كولونيالية كما شهدنا الأخر، لذا سنحاول تقديم قراءة لنماذج من مقالات تاريخية ثقافية تناولت الجنوب الغربي الجزائري أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين محاولين في ذلك تفكيك إشكالية الاستثمار الاستعماري للوجه الثقافي اللغوي ومحاولة فهمه خدمة للمشروع التوسعي الاستيطاني.

الكلمات المفتاحية: الجنوب الغربي الجزائري، المجلة الإفريقية، الاستعمار الفرنسي، الكتابات التاريخية، الباحثين الفرنسيين، الواقع الثقافي، المجتمع الصحراوي.

Abstract :Abstract: The African magazine (Revue. Africaine) specialized in Algerian historical works and archaeological studies dealt with an important aspect of cultural and linguistic history in the southwest of Algeria, and this series of knowledge works came to shed light on the cultural reality that actually existed and this sparked the interest of French researchers in an attempt Knowing its historical and social origins and getting closer to understanding its socio-cultural dimensions to reactivate it within the colonial project.

This attempt, despite its scientific source value because of the narrative and descriptive information it contained, was formulated from a colonial vision as witnessed by the other. Therefore, we will try to provide a reading of samples of historical and cultural articles that dealt with the Algerian southwest in the late nineteenth and early twentieth centuries, trying to dismantle the problem of colonial investment in the cultural and linguistic aspect and try to tame it in service of the settlement expansion project.

Keywords: southwestern Algeria ; African magazine ; French colonialism; historical writings; French researchers ;cultural reality; Saharan society.

اعتنت المجلة الإفريقية بالبحوث التاريخية والاجتماعية والثقافية والأثرية التي خصت بها مجتمعات الشمال الإفريقي عامة والمجتمع الجزائري خاصة خلال حقبا تاريخية متفاوتة، ورغم قيمتها المعرفية وتنوع مواضيعها وطابعها الأكاديمي القائم على العرض والتحليل، إلا أنها كانت تخفي وراءها تصورات فكرية تخدم الرؤية الكولونيالية التي أسست لثقافة الهيمنة، ومن بين هذه المقالات التي عنيت بالبحث عن الأبعاد السوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري وأثارت اهتمامنا مقالا جاءت به المجلة الإفريقية، تناول جماعة اثنية اندمجت في المجتمع الشمال الإفريقي العربي الأمازيغي الإسلامي، مبرزة فيه مكوناتها الثقافي الفني وقدرة تفعيله بين الأوساط المحلية وذلك لإحياء المناسبات الدينية والفصلية وهي جماعة عرفت بإخوان سيدي بلال.

ويظهر أن الموضوع ما هو إلا "قراءة في نماذج من المقالات التاريخية الثقافية الوصفية تضمنت جزءا من التاريخ الاجتماعي والثقافي للجنوب الغربي الجزائري، وهو من المواضيع الجديدة التي حاول فيها الباحث تحليل ومناقشة ظاهرة إخوان ديوان سيدي بلال، هذه الفئة الاثنية الإفريقية ارتبطت بالرق والعبودية، حيث تمكنت من الاندماج الطبيعي في المجتمع الجزائري، وكان الديوان أحد آليات التواصل عبرت عنه بالإيقاع الموسيقي واللفظ العربي السوداني.

وتكمن أهمية الموضوع الذي بين أيدينا في إعادة تحليل البناء الثقافي والاجتماعي والنفسي للأفارقة السود في المجتمع الجزائري، كما عرضه الباحث لكون ديوان سيدي بلال حسب تصورنا ما هو إلا منظومة فنية لجماعة اثنية ذات خصوصية ثقافية متميزة، حيث مثل فيها الديوان وجها من أوجه المقاومة الذاتية الرفضية للاغتراب الذي تؤزّه مشاعر الحنين للوطن الأصلي وشكل من أشكال رفض العبودية، وما يهمننا في بحثنا هو قراءة نماذج من المقالات التاريخية الثقافية التي أشارت إلى مجتمع الجنوب الغربي الجزائري وخصصت له دراسة علمية مصدرية وثقت لجزء من الحياة الثقافية وعليه نطرح إشكالية وثوقية المصادر التاريخية ودرجة الموضوعية في نقل المشاهد الاجتماعية؟.

لقد تناولت المجلة الإفريقية مجموعة من المقالات عنيت بالتاريخ الثقافي للمجتمع الصحراوي من حيث العادات والتقاليد والحكم واللهجات، إلا أن موضوع الثقافة الزنجية المجسدة في ديوان سيدي بلال وما لقيته من انتشار واسع في شمال إفريقيا أثار اهتمامنا في محاولة فهم أصوله وطريق انتشاره، ويظهر من خلال قراءتنا للموضوع فإن إشكالية السبق لا يرجع إلى بلد في حد ذاته وإنما وصوله كان متقدما في المناطق الصحراوية، إذ يتعين علينا قراءة هذه النصوص بحذر ورغم قيمتها العلمية المعرفية فهي تخفي أبعادا استعمارية في استعمال بعض المصطلحات الخاصة، وغالبا ما تكون عبارات مختارة بدقة وذكاء تكرر التفرقة والعنصرية والصراع القبلي وتشيد بالحضارة الغربية وقيمها الإنسانية.

1. تقديم المجلة الإفريقية وأهدافها.

1.1. تعريف المجلة الإفريقية:

شجعت السلطة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، وعلى رأسها الحاكم العام العسكري الجنرال راندون (Randon) (1851-1858م)، مجموعة من الضباط السامين في الجيش الفرنسي ومنهم إدريان بيربروجر "Berbrugger" بتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية بقرار 07 أفريل 1856م تعنى بالبحث العلمي، حيث يصرح بيربروجر في هذا الشأن قائلا: "لقد أسهمت هذه الدوريات في إعطاء لمحات عن البحث العلمي في هذا البلد، غير أن النتائج المتوصل إليها لم تكن منظمة تنظيما محكما يؤسس لقواعد بحث علمي حقيقي وهو الأمر الذي دفعنا في لجمعية التاريخية الجزائرية إلى إنشاء المجلة الإفريقية".

ظهرت المجلة الإفريقية في الجزائر سنة 1856م التي تعنى بالتاريخ الجزائري والبلدان المغاربية والعالم الإسلامي، وكل ما يتعلق بالعادات والتقاليد والثقافات والعلوم، توازيا مع ظهور مرحلة سياسية تاريخية صعبة، إذ تعد المجلة الإفريقية ذات قيمة تاريخية وعلمية ووثائقية يعبر عنها مؤسسها في مقدمة عددها الأول على أنها مجلة تسير تنقلات الجيش الفرنسي في حملاته العسكرية على الآتي: "لقد اضطر الدارسون إلى اقتفاء المسالك الضيقة التي كان جنودنا المغاوير يفتحونها لهم، كان عليهم إذن أن يكتفوا بأخذ ما هو متاح في أعقاب الجيش مع الابتعاد بعض الشيء عن الخط المرسوم للعمليات العسكرية. (A.Brbrugger, 1856, p. 05).

نشرت المجلة الإفريقية منذ 1856 إلى غاية 1962 مجموعة من المقالات بلغت 1267 مقال في تخصصات متنوعة كالتاريخ والجغرافيا والأدب العربي والأدب الشعبي واللغات واللهجات والرواية الشفوية وعلم الآثار والحفريات وغيرها، إضافة إلى اهتمامها بجميع ميادين البحث في الجزائر، حيث عمل المستشرقون الفرنسيون في مجالات

متعددة في التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا والاثنوغرافيا والدين الإسلامي والمخطوطات وترجمة النصوص الأدبية وتآليف الكتب المدرسية. (بوروية، 2015، ص 90-91).
عرفت المجلة الإفريقية تنظيماً في أعدادها ومحتوياتها وذلك من خلال تقسيم أعمال نصوصها الى فئات متباينة أهمها:

- المقالات الرئيسية أو الرسمية: (Partie officielle) احتوت مجلات مختلفة كتابها علماء اثار ومؤرخون وعلماء اجتماع وأطباء وهذه المقالات هي الركيزة الأساسية للمجلة.
- الحوادث والاعمال التاريخية (Chronique) هي مجموعة الاحداث والنصوص التي أرسلت من طرف مراسلين عسكريين ومدنيين، في الجزائر وخارجها يتناول اخبار المقاطعات (الجزائر- وهران- قسنطينة) وفرنسا وبعض الدول الأوروبية.
- بيان او كشف ببليوغرافي (Bulletin bibliographique) تهتم بنشر الكشوفات الجديدة الاثرية بالمناطق الجزائرية وتقديم إضافات أو تعليقات لنصوص منشورة.
- الملاحظات والتنويهات (Notes diverses) عبارة عن ملاحظات موجهة للمراسلين وأعضاء الجمعية (رزوق، مارس 2015، ص 156-157).

2.1.اهداف المجلة الإفريقية:

- اهتمت المجلة الإفريقية بنشر المخطوطات المحلية والعربية والوثائق الاصلية، كما اعتنت بتاريخ الجزائر في مختلف حقبة التاريخية وبدرجات متفاوتة، واعتبرها غوستاف ميرسييه (Gustave.Mercier-Lacombe) كونها مكتبة تاريخية (Teissier, 1876)، ففي مقدمة العدد الأول للمجلة صرح بيربروجر: ان فرنسيي الجزائر قد أدركوا منذ الوهلة الأولى مهمتهم الحضارية التي وجب نشرها. " ويضيف قائلاً: سوف لا يغيب عنها ملاحظتنا لأي شيء مهم ونشره للإدارة والعامة، وقد كانت المجلة مهمتها نشر الحضارة الغربية الفرنسية في الجزائر وبجميع الطرق والوسائل المتاحة. (سعد الله، 1998، ص 94)، إضافة إلى مجموعة أهداف أخرى:
- الاهتمام بنشر المخطوطات المحلية والعربية والوثائق والتي تعنى من طرف الصحافة لما قدمته من مجهودات علمية وأعمال بحثية تم نشرها.
- التعريف بأعضاء المجلة ومساهماتهم العلمية والمعرفية أمثال غرامون (H.D.Grammont) الذي اهتم بدراسة تاريخ الجزائر وفانينان (Fagnan) الذي كانت اهتماماته ترجمة الأدب والتاريخ العربي وبيربروجر الذي قام بجمع حوالي مائتي مخطوطة عربية، وما يزيد على ثمانمائة مخطوط. (العربي اسماعيل، 2007، ص 29).
- عملت المجلة على كشف بنية المجتمع الجزائري وتركيباته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.
- التركيز على الآثار والمنقوشات والنميات الرومانية ومحاولة ربط منطقة شمال إفريقيا والجزائر بصفة خاصة بأوروبا اللاتينية المسيحية من خلال البرامج الدراسية والبحوث العلمية.
- محاولة تشويه صورة العالم العربي الإسلامي والتواجد العثماني بالجزائر من خلال تلك الدراسات التي قام بها عضهم في المجلة الإفريقية.
- إظهار الصورة المدنية والحضارية للاحتلال الفرنسي في الجزائر باسم المدنية الفرنسية وتحضير الشعوب المتخلفة. (هلايلي، مارس 2020، 102- 104).
- تشجيع اللهجات الجزائرية العامة في الكتابات الأدبية على حساب اللغة العربية وآدابها. (بوروية، 2015، ص 91).

2. نماذج من المقالات بالمجلة الإفريقية حول الجنوب الغربي الجزائري.

تضمنت المجلة الإفريقية عددا من المقالات البحثية خص بها الجنوب الغربي الجزائري، شملت مواضيع مختلفة بلغ عددها أزيد من سبع مقالات نذكر منها:

1.2.المقال الأول: (A.Coyane, Le Sahara de l'ouest et une partie du Sahara occidental)

عنوان المقال : الصحراء الغربية، وجزء من الصحراء الغربية (الجزائرية).
دراسة جغرافية وصفية سابقة للغزو الفرنسي لمنطقة الصحراء الغربية (Sahara occidental) إقليم جغرافي شاسع يضم عدة بلدان من الساحل الغربي الافريقي ومناطق بالصحراء الجزائرية، في العدد 34 من المجلة سنة 1890ممن الصفحة 43 إلى غاية الصفحة 54.في 11 صفحة، اذ تناولت هذه الدراسة وصف لمقبرة خنيفة التي خصصت للغرباء وطريقة دفنهم بملايسهم تتوسط هذه المقبرة قبر صغير الحجم به منارة على شكل هرمي وبالمناطق أبار قليلة تكاد تكون جافة (A.Coyane, 1890, p. 43)، كما وصف الباحث صعوبة المسالك ووصف الأبار وأعماقها التي تزيد عن 50متر وأبار منطقة اموزقرق التي يفوق عمقها 80 متر.

كما وصف الباحث كوايان "Coyane" طبيعة الأرض وقلة الغطاء النباتي بالمنطقة، كون الأراضي عبارة عن أرض حجرية، ووصف في شهر ماي 1860م جبال ادرار سيتوف من حيث الطول والعرض والاتجاه (A.Coyane, 1890, p. 44).

وحدد الباحث مناطق تواجد الماء، وفي فصل الخريف تجلب المنطقة إليها زحف القبائل من واد الدرق كما وصف الحيوانات المتواجدة بالمنطقة من جمال وماعز، كما ذكر أسماء للجبال التي تحمل اسم ادرار مثل ادرار تمار وادرار ستوف وهي كلمة بربرية تعني الأرض البيضاء. (A.Coyane, 1890, pp. 43-54).

2.2. المقال الثاني: René.Maire- E.Wilczek, Sur la végétation du Sahara occidental: عنوان المقال: الغطاء النباتي في الصحراء الغربية (الجزائرية).

تناولت هذه الدراسة في العدد 76 من المجلة الإفريقية في سنة 1935م من الصفحة 91- 93. في صفتين، علوم الطبيعة ونباتات منطقة الصحراء الغربية من طرف الأستاذ روني ماري (René.Maire) أستاذ كلية العلوم بجامعة الجزائر والأستاذ الشرفي ويلزك (E.Wilczek) أستاذ بجامعة لوزان هذه الدراسة عنيت بأهم النباتات المتواجدة بمنطقة تندوف ومنطقة فم الحسان وبين واد الدرعة ووادي نون كما حددت الدراسة الفصل بين الصحراء في الجهة الغربية والجهات الجنوبية، ووصف للأطراف والنطاقات النباتية في الصحراء (René.Maire, 1935, pp. 91-93).

3.2. المقال الثالث:

E.Dermenghem, Les confréries noire en Algérie Diwans sidi Blal.

عنوان المقال: الإخوان السود في الجزائر ديوان سيدي بلال. تضمنت المجلة الإفريقية أزيد من سبع مقالات بحثية شملت الآداب الشعبية واللهجات المحلية ودراسات فترة ما قبل التاريخ بالجنوب الوهراني وأبرز مقال تضمنته المجلة الإفريقية مقالا ذو طابع اجتماعي فني لمجموعة اثنية ذات أصول إفريقية استطاعت أن تندمج مع المكون الاثني الجزائري وان تتعايش بسهولة بين أوساط أفراد المجتمع الجزائري، محملة معها ثقافة فنية عربية عبرت فيها عن أحاسيس وجدانية صوفية إسلامية إذ استطاعت هذه الثقافة الجديدة أن تفرض نفسها في المجتمع الجزائري وان تلقى قبولا وتجاوبا.

تناولت الدراسة التي قام بها الباحث دارمونجهم "Dermenghem" في العدد 97 من المجلة الإفريقية الصادرة في سنة 1953م التي احتوتها 54 صفحة، تاريخ الديوان وطريق وصوله إلى الجزائر وانتشاره في المدن والمدارس متطرقا إلى أصوله الفنية، وما ارتبطت به من طقوس وعادات توارثتها الأجيال، إذ يرى أن الاحتفال بالديوان في الجزائر تختلف طقوسه من منطقة إلى أخرى، وكان يقام لإحياء المناسبات الدينية في منتصف شعبان والمولد النبوي الشريف ومناسبات فصلية كحلول السنة الأمازيغية الجديدة وأخرى اجتماعية ارتبطت بحفلات الأعراس والختان، وكانت هذه الاحتفالات يقيمها الإخوان السود المنتشرين في مناطق جزائرية عدة شمالا وجنوبا شرقا وغربا خلال الفترة ما قبل الاحتلال الفرنسي وبعده (E.Dermenghem, 1953, pp. 314-367).

ويظهر أن هذه الدراسة العلمية التي قام بها الباحث دارمونجهم جديرة بالاهتمام لتناولها موضوعا سوسيولوجيا ثقافيا اثنيا، عرف بالديوان الذي لاقى تجاوبا بين فئات عريضة من المجتمع الجزائري حيث استطاعت أن تندمج ضمن هذه الثقافة الفنية الإفريقية القائمة على الجذب الصوفي لارتباطات دينية وروحية ومن هذا المنطلق جاء اختيارنا لقراءة ومناقشة هذا النموذج الفني المتميز الذي عرضه الباحث ممثلا في ديوان سيدي بلال.

3. الديوان من الروافد الثقافية الإفريقية:

1.3- أصل الديوان:

تعود أصول الديوان إلى الثقافة الإسلامية الإفريقية التي عرفت في فترات تاريخية سابقة، إلا أن المجتمعات الشمال إفريقية تعرفت عن فن الديوان قبل الاحتلال الكولونيالي إليها حيث ارتبطت منذ قرون بنشاط القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان المحملة بالعبيد السود "تجارة الرق" حيث كان يتم نقل الرقيق عبر الصحراء باتجاه التل الجزائري والمغرب وتونس، ففي القرن 16م كانت تجارة العبيد مزدهرة تدر أموالا طائلة على أصحابها التجار وذكرت المصادر أن قيمة الرقيق متفاوتة إذ بلغت قيمة الشاب منهم ما بين 05- 06دورو ما يعادل "30 فرنك"، أما في الواحات يزيد الثمن عن 35- 40 دورو ما يعادل "200 فرنك" وكلما انتقلت هذه المجموعات إلى المناطق الساحلية ارتفع ثمنها.

ازدهرت تجارة الرقيق في منطقة فقيق وميزاب وتوات وفاس، وقدر ثمن العبد فيها ما بين 150 فرنك إلى 200 فرنك والأمة من 200 إلى 400 فرنك، وقد حضى العبيد في المناطق التالية عناية خاصة بين العائلات الراقية كما كان الحال بمدينة الجزائر والمدن الكبرى الأخرى، وبينما كان عدد قليل منهم يوزعون على القبائل عن طريق رؤسائهم كقبائل بني مناصر ومرابطي آيت حفيان وسيدي مرزوق، ومجموعات أخرى وجدت في بسكرة وبوسعادة،

ومنهم من استخدم في البلاطات لملكية مثل عبيد البخاري بالمغرب الأقصى في عهد المولى إسماعيل، وعبيد بايات مازونة ومعسكر الذين استخدموا في التشرقيات العثمانية . (E.Dermenghem, 1953, pp. 314-315).
وذكرت المصادر الفرنسية أن مدينة الجزائر وجد بها حوالي 2000 عبد عشية الاحتلال، وكانت السلطة العثمانية تقوم بتنظيمهم باعتبارهم من فئة البرانية، أما السود الأحرار فكانوا يشتغلون بعض المهن كالبناء وجزارين وأعمال النظافة، ونفس الشيء بالنسبة للسود في بني ميزاب وبسكرة والاغواط كانوا يمتنون الموسيقى، أما النسوة منهن كن يتواجدن بالحمامات، واستخدم بعضهم في الجيش وخاصة الأقوياء منهم ولثقة الولاة بهم ومقدرتهم على الاندماج وخصص لهم قائد عرف بالوصفان، وفي سنة 1841م تواجد بمدينة المدية سوق للعبيد السودان، الذين تم إنقاذهم من حالتهم المزرية وإدماجهم في المجتمع (E.Dermenghem, 1953, p. 316).

2.3 - تعريف ديوان سيدي بلال:

هو ذلك التجمع ذو الطابع الاجتماعي الذي تشكل في شمال إفريقيا من الأفارقة السود الذين تعود أصولهم لمناطق الهوسا وسنغاي وتم دمجهم في مجتمع عربي بربري ذلك أن هذا المكون الجديد المفعم بأحاسيس الاغتراب والمنفى وبعدهم عن بلدانهم الأصلية سرعان ما تكونت لديهم أحاسيس وانجذابات صوفية عبرت عن نفسها ضمن جماعتها واتخذت من شخصية بلال الحبشي مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم معلما روحيا لها.
وسميت هذه الجماعة بديوان سيدي بلال ففي مدينة الجزائر سنة 1900م وجدت سبع بيوت أو ديار "سيدي" ثلاثة منها للسودان الشرقي الهوسا، بورنو، كاتشينا، وأربعة للسودان الغربي بامبارا، سنغاي، تومبوكتو، قورما، وكانوا يقومون باحتفالات سنوية في فصل الربيع من يوم الأربعاء والاحتفال في منتصف شهر شعبان بالتقويم الإسلامي حيث يتم بنحر ثور، ويقومون بالحضرة ويستعملون فيها الطبل والدف اعتقادا منهم أن الأعمال ترفع خلال هذا الشهر (E.Dermenghem, 1953, pp. 320-321).

أن فلكلور الديوان الإفريقي كان منتشرا في شمال إفريقيا منذ القرن 19م قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، لأنه ارتبط بحركة تجارة العبيد المحولين من بلاد الساحل الإفريقي نحو البلدان المغاربية، حيث انتشرت جماعات من السود في الصحراء والتل الجزائري، وفي تونس والمغرب وطرابلس وهؤلاء لسود حملوا معهم ثقافتهم الدينية وفنونهم الموسيقية.

إذ عرفت هذه الجماعات بأولاد سيدي بلال وكانوا يقيمون حفلاتهم في مقرات خاصة عرفت بديار رجال الله والمحلة ويعتقدون أن الحضرة المقامة في المناسبات الدينية من شهر شعبان والمولد وغيرها هي شفاء للأمراض الجسدية والنفسية وكانت لهم طقوس خاصة وقد استعملوا في حضرتهم وسائل موسيقية (وترية ومعدنية): مثل الطبل والدف والقومبري وصفائح قرقابو ونستنتج من خلال هذه الدراسة الاجتماعية أن أسبقية الديوان في جهة جغرافية دون الأخرى أمر مستبعد بل أن فن الديوان عرف انتشاره في شمال إفريقيا متنقلا من الساحل الإفريقي عبر تجارة الرقيق.

3.3- موقف السلطات الاستعمارية الفرنسية من تجارة الرق:

منذ سنة 1848م أكدت السلطات الاستعمارية الفرنسية على إلغاء تجارة الرق، وهذا بعد عدة محاولات أهمها ما قام به الجنرال بيليسي (Pélissier) سنة 1850م في دعوته لتحرير العبيد ورأى أنها مجموعات يستوجب دمجها في المجتمع، ففي 27 جانفي 1858م رفض أهل ميزاب الإجراءات الفرنسية التي دعت إلى إلغاء تجارة الرق لأن هذه التجارة كانت تدر لهم أموالا طائلة وتوفر لهم يد عاملة، حيث قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية في سنة 1880م بتحريم تجارة العبيد بمنطقة فقيق وتم إعلام الساكنة بذلك.

كما قامت بوضع عدة تشريعات وقوانين تلغي هذه التجارة في إفريقيا والبلدان التي أصبحت تحت سيطرتها ومن أهم هذه القوانين قانون 1905م وقانون 15 جويلية 1906م، كرسها مجموعة من الضباط الساميين الفرنسيين منهم شارل جونار (Charles.Jonnart) (E.Dermenghem, 1953, pp. 317-319).

وحسب رأي الباحث عرف السود الأفارقة صعوبات كبيرة في الاندماج داخل المجتمع الجزائري، لدوافع نفسية واجتماعية والإحساس بالاختلاف في اللون والعرق وخاصة بمناطق الجنوب الوهراني والمدن الحديثة الناشئة، إذ يظهر الديوان بوضوح أكثر تنظيما يعكس ثقافة السود التي ارتبطت بتاريخهم الاجتماعي والاقتصادي. (E.Dermenghem, 1953, pp. 319-320). حيث استطاعت هذه المجموعة أن تؤسس لنفسها شخصية متميزة سودانية الأصل إسلامية المعتقد ومن بين رموزها اللفظية: زار (Zar) ولفظ بوري (Bori) (E.Dermenghem, 1953, p. 320).

4 - انتشار الديوان في الشمال الإفريقي:

1.4 - تونس:

انتشر ديوان سيدي بلال في المجتمع التونسي ووصف الباحثان تريمايرن "Tremearne" والسيدة ديبولوز لافان "Dubouloz.Laffin"، طقوس ديوان سيدي بلال في مدينة صفاقس وذكر أن هذا الفلكلور عرف عند التوانسة بالبوري (Bori) أو قناوة (Gnawa) ووصفا مشاهد الجذبة على الساحل التونسي أمام حضرة سيدي منصور حيث شوهدت جماعة من قناوة تحتسي الدم، أما النساء كن يمزقن ثيابهن وهن جاذبات إذ يسود الاعتقاد لدى الجميع أن حالة الغيبوبة التي تنتاب المرأة هي شفاء من الأمراض النفسية والجسدية وأن الجن من يساعد على ذلك، وذهب الباحث تريمايرن الذي نقل المشاهد الحاضرة بتونس وطرابلس التي كانت تقام بمناسبة المولد النبوي الشريف ومقرنتها بمشاهد الرقص الصوفي في بلاد الهوسا، حيث وجدها متشابهة في الطقوس والاعتقاد والترنيمات ولعلاج الأمراض النفسية.

2.4 - المغرب:

عرف أهل الديوان بالمغرب الأقصى بجماعة قناوة ففي ساحة جامع الفنا بمراكش كان الديوان يجتمع مساء لإحياء المناسبات الدينية ونفس الحلقات كانت تشاهد في مدينة طنجة وإقليم سوس وأحيانا تدوم طوال الليل وهم يرددون أسماء الأرواح الجنية المعروفة لدى إخوان الديوان مثل: سيدي حمو، سيدي موسى، لالة ميمونة، لالة عائشة. (E.Dermenghem, 1953, pp. 346-347).

3. 4 - الجزائر:

وفي أعالي مدينة الجزائر القصبة خصص منزل لأهل الديوان عرف ببيت رجال الله أين كانت تقام حضرة سيدي بلال مساء، ومن الأدوات الموسيقية المستخدمة: الطبل، القميري المستطيل الشكل به ثلاثة أوتار مزين بالحنة وصفائح قرقابو، كما وصف لنا الباحث حركات الرقص والجذب من لנסاء والرجال وعادات وتقاليد الممارسة (E.Dermenghem, 1953, pp. 322-326).

في سنة 1878م أقيم حفل بمدينة الجزائر اجتمع 60 شخص من السود تحت قيادة سالم بن احمد قائد ديوان سيدي بلال وتولى بعده الشيخ مبارك بوقندورة سنة 1880-1881م، إذ سمحت السلطات الاستعمارية الفرنسية لمقومي الديوان بممارسة طقوسهم الدينية، أما حضرة سيدي مرزوق كانت تتم في منطقة الأبيار وسجل ذلك سنة 1889م.

كان الرقص المقدس للديوان بمدينة الجزائر يدوم خمسة أيام ما بين الخامسة صباحا إلى غاية الزوال، فالديوان هو رقصة صوفية أو فن فولكلوري جلبه السود الأفارقة إلى الجزائر من مناطق إفريقية مختلفة، وحسب رحلة ميشال لوريس (Michel.Leiris) اكتشف أن الديوان كان موجودا بإفريقيا أثناء رحلته بين السنغال وجيبوتي. (E.Dermenghem, 1953, pp. 337-342).

كان السود يقومون بطقوسهم إما بذبح ثور أو من دون ذلك، وعرفت مدينة ورقلة الديوان وطقوسه في عاشوراء وفي الأعراس، ونفسه عند قبائل بني سنوس حيث كان يقام الحفل خلال شهر جانفي إحياء للنائر الذي يصادف عيد السنة الأمازيغية البربرية.

وتعرض الروايات الشعبية أن أحد التجار بمدينة الجزائر أهدى غلاما لأحد السلاطين، فسماه بلال كان يقدم له الفول وبعد وفاة بلال دفن تحت قبة بالقرب من الحامة، ولهذا السبب كانوا يقدمون الفول في حضرة سيدي بلال ويقومون بذبح عجل أو ثور، وانتشرت هذه الاحتفالات في الحراش وباب الواد. (E.Dermenghem, 1953, pp. 328-334).

لقي الديوان انتشارا واسعا بالمناطق التلية: البليدة والقبائل وقسنطينة وكان مكونا من سود " النيجر وتومبوكتو وبورنو والهوسا"، كما انتشر في مدينة باتنة، التي شهدت ذبح الثور في الاحتفال لأول مرة سنة 1865م، في حين أطلق على الديوان اسم البلالية في معسكر ومستغانم وغيليزان وعين تيموشنت وتلمسان وسيدي بلعباس وسبق وتيارت، حيث كانت تقام الاحتفالات في شهري سبتمبر وأكتوبر من قبل السود الأفارقة الذين كانوا يجيدون العزف على القومبري، وتذكر المصادر التاريخية أن أهل مستغانم كانوا يذبحون الثور في غابة سيدي محمد المجذوب بخروبة على ساحل البحر، ولم يعرفوا تأخير عن مواعده إلا في سنة 1951م، إذ تم تقديم احتفالات الديوان ما بين 17 إلى 20 أوت بسبب موسم الحج وذهاب الحجاج للبقاع المقدسة.

عرفت مدينة سيدي بلعباس مجموعتين من أهل الديوان الذين كانوا يحتفلون بالوعدة في نهاية شهر أكتوبر، ومثله في سعيدة وتلمسان حيث وجدت ثلاث جمعيات كانت احتفالاتهم في العيدين وفي المولد النبوي الشريف، وشاهدوا وهم يذبحون العجل بغابة سيدي يعقوب، ويرتدون ألبسة مختلفة الألوان حمراء وصفراء ويرددون أسماء الأرواح المتداولة عند أهل الديوان مثل " بابا موسى، بابا حمودة، شقرقماما، بابا موحا، لالة ميرة".... وفي واد الهيرة بمنطقة غيليزان كان أهل الديوان يقدمون عجلا قربانا للولي الصالح سيدي قادة والوالي سيدي دحو وكانت الطقوس تقام يوم الخميس في بيت المحلة.

5. الديوان بالجنوب الوهراني:

ذكر أن إخوان الديوان بالجنوب الوهراني عرفوا باسم أهل القرابة (Graba)، وذلك لاتخاذهم من القربي (Gorbi) مسكنا لهم هو بيت متواضع كان عادة يسكنه الفقراء.

5.1- عين الصفراء: كان إخوان سيدي بلال يشرف عليهم شاب مكلف بجمع المال لشراء العجل، وكانوا يستعلمون الطبل في حفلاتهم ويعرف ذلك الطبل باسم قانقا (Ganga)، وكان للديوان قاعة كبيرة بنيت من الطين في شكل مستطيل، قسمت إلى قسمين الأول منه خصص لجماعة سيدي بلال، والثاني منه لجماعة سيدي عبد القادر، أما الإخوان كانوا من سود بامبارا Bambara، وأهازيجهم عربية اللفظ أكثر منها سودانية فهم يلفظون عبارة بوري وبشانقاراما المعروفة عند أهل الديوان وكانت احتفالاتهم يومي الجمعة والسبت مساءً. (E.Dermenghem, 1953, p. 348).

5.2- بني ونيف:

الديوان يتألف من ست إلى سبع أعضاء كبار السن وذكر أن مقدم الجماعة وشيخها هو من عبيد قبيلة أيت عطا، الذين سلموه لأهل بشار، ذكر الباحث دارمونجهم أن أهازيجهم خليط بين ألفاظ عربية وسودانية إذ كانوا يرددون كلمة الله أكبر بلفظ غريب (YerKoi.akbar) ويعبرون عن معاناتهم واغترابهم وقيمون طقوسهم الدينية في أيام شعبان.

5.3- كولومب بشار:

كان الديوان في منطقة بشار قبل الاحتلال الفرنسي يشرف عليه الشيخ بن عودة السوداني الذي قدم من مدينة سعيدة هذا الشخص كان يحسن العزف على القومبري، ويعتقد أن فن الديوان من المواهب التي تمنحها القوى الروحية وهم رؤساء رجال الله من الجن، أما إبان الاحتلال الفرنسي لمنطقة بشار فقد وجد بمدينة كولومب فرقتين للديوان الأولى السودانية والثانية تواتية وكان للمجموعتين مقام يعرف بمقام سيدي بلال وهي عادة معروفة لدى إخوان سيدي بلال، وهو عبارة عن ركام رملي حجري مستطيل الشكل وضع بالمدينة الجديدة أي المقبرة القريبة من القصر القديم (قصر تاكدة) حيث وضع المقام بين قبتي سيدي عيسى (حداد الواد) وسيدي عبد القادر.

يجتمع الديوان مرتين في الأسبوع الاثنين والسبت، فكان شيخ المجموعة الأولى سالم بن الحاج المولود حوالي سنة 1882م الذي جلب في السن السابعة من عمره من أعالي بوندياقر المالية إلى الفوتا، وبيع في تومبوكتو إلى رقيبات السواحل ثم حمل على جمل رفقة مجموعة من الأطفال ثم أعيد بيعه بتيميمون بمقدار من التمر وقربة من الزيت، حتى اشتراه المدعو سيدي بابا وسخره للعمل في الأرض ثم بيع مرة أخرى بـ 80دورو ما يعادل 400 فرنك إلى سعيد بن سالم رئيس قافلة ذوي منيع الذي منحه لعمره، حتى انتهى به الأمر إلى الحاج بن عبد الله من قبيلة أولاد جرير.

حاول الكاتب سرد قصة معاناة سالم بن الحاج وما تعرض له من جروح واعتقاله في إحدى الغزوات ضد بني قبيل حيث حاول الهرب عدة مرات حتى لجأ إلى سيدي إبراهيم شيخ الزاوية القندوسية الذي أرجعه إلى سيده.

يبدو أن الباحث دارمونجهم حاول إظهار معاناة الشيخ سالم بن الحاج من خلال سرده لقصة حياته، لإبراز حقيقة الديوان الذي لا يفصل عن معاناة هذه الجماعة الاثنية من تبعات تجارة الرق المجلوب من أرض السودان غصبا حيث وجدت نفسها أسيرة في حدود جغرافية جديدة لم تعهدها من قبل، فكان الديوان فنا عبرت من خلاله عن حنينها واغترابها وجعلت من القوى الروحية ملاذا لها فرجال الله من الجن مثل، بابا حمودة ذو اللون الأحمر، ولالة عائشة ذات اللون الأصفر وسيدي علي ذو اللون الأزرق أولاد ساريقو السود ومغزاوة وحوش الغابة، وهذه الرموز التي حملها سيدي حمو الأصفر البحري وسيدي البوهالي سيد الجبال، وسيدي موسى الأبيض البحري سيد الكنوز البحرية، وسيدي سليمان الأصفر سلطان الصحراء، والميساجي الأسود سيد الأرض السفلى، وجاتو أو بلحمر سيد كل ما هو أحمر، ولالة مبيريكة البيضاء ساحرة النساء، وسيدي ميمون القناوي ولالة ميمونة وسيدي بلال ومولاي عبد القادر والحسن والحسين ولالة فاطمة الزهراء ومكة والمدينة. (E.Dermenghem, 1953, pp. 348-350).

هذه الرموز المقدسة دلالة على الكائنات الروحية العليا والسفلى، وهي مصدر فلكلور الديوان الذي يقام في المناسبات الدينية في شهر شعبان وفي فصل الربيع في عيد الفول وعيد الدجاج، ومن آلاته الموسيقية الطبل الذي يعرف بالدلول، وقانقا المزركش برسومات من الحنة وقرقابو والقمبري، فإذا كان الديوان يقام أمام حضرة سيدي بلحمر كانت الأضحية بالدجاج الأحمر، في حين كان الديك الأبيض والماعز تقام في حضرة مولاي عبد القادر ذلك أن الذبيحة والأغاني تثير الجن أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تقوي مشاعر الإيمان عند المسلمين وإيقاع الموسيقى يقوي مشاعر القلب.

وذكر الباحث دارمونجام أنه حضر حفل الديوان في يوم السبت 17 نوفمبر 1954م مساء، حيث شاركت مجموعة من الرجال والنساء في الاحتفالات وتعاليت الزغاريد تحت إيقاع القميري والطبل وسمعت أصوات صارخة متمازجة، رددت كلمة بوري - بوري بينا - بينا- اندابو وشوهد وسط الحلقة رجل يجلد على ظهره.

وحسب النقيب روجي (Roget) أن أعياد العبيد الوصفان أو قرقابو دندون نسبة للآلات المستعملة عند سود زناتة، كانت تقام بمنطقة قورارة ففي الجنوب الجزائري من الصعوبة إيجاد ديوان منظم، ففي الجلفة لا وجود للديوان هناك، أما في الأغواط فهو قليل الانتشار، بينما وجدت عدة مقامات لسيد بلال في بني ميزاب جنوب غرب غرداية على مشارف هضبة صخرية، أما في منطقة المنيعية تشكل الديوان من السود الذين ينتمون للعرب أو زناتة، إلا أن المقدمين كانوا من السود ويعرف المقدم بالمعلم واثنان من العرفاء، ويظهر أن هذا النوع من الفلكلور وجد في عين صالح وواد سوف وورقلة وتوقرت، وقد عرض الباحث مجموعة من الأغاني المستعملة منها الشانقاراما. (E.Dermenghem, 1953, pp. 350-353).

وعنيت المجلة الإفريقية بالصحراء الجزائرية من خلال مقالات أخرى يمكن للباحث الاطلاع عليها أهمها:

- René.Basset , La légende Bent El Khass ,n49,1905.p18-34.

- مقال بنت الخص: تناول أسطورة المرأة الهلالية بنت الخص التي حكمت الصحراء وما نسج حولها من حكايات وحكم المتداولة بين بدو الصحراء، تضمنت صفحات المقال ستة عشر صفحة. (18-34). (Basset, 1905, pp. 18-34).

-Flamand,Nouvelles recherches sur le Préhistoire dans le Sahara dans le haut pays Orannais,n50,1906, p.204-232.

- مقال حول دراسة بحثية جديدة خص بها مناطق الصحراء الشمالية العليا بالجنوب الوهراني (عين الصفراء، تينوت) في فترة ما قبل التاريخ. احتوى المقال على ثمان وعشرون صفحة. (204-232). (Flamand, 1906, pp. 204-232).

- Cancel, Etude sur le dialecte de tebelbala,n52,1908,p.302-347.

- دراسة حول اللهجة التبلالية من حيث الأصول، بلغت صفحات المقال خمسة وأربعون صفحة. (302-347). (Cancel, 1908, pp. 302-347).

- André.Bassé , comptes rendus ,George Gorree,les amitiés saharienne du Père de Foucauld,2vol,p.286 et p.376 ,Rabat, 1941,n86,1942 ,317-318.

دراسة تطرقت للمبشر الأب دو فوكو في صفتين (317-318). (Bassé.André, 1942, pp. 317-318).

- Alfred.Martin, l'action française dans le Sahara, n37, 1893,p.330-351.

- المقال هو عبارة عن تقرير للمترجم العسكري الفريد مارتن حول النشاط الفرنسي بالصحراء الجزائرية، أعده الباحث في واحد وعشرون صفحة (330-351). (Martin.Alfred, 1893, pp. 330-351).

3. النتائج:

- تنوعت الدراسات التي جاءت بها المجلة الإفريقية التي عنيت بالمجتمعات الصحراوية، هذه المجتمعات التي لاقت اهتمامات الباحثين الفرنسيين وجعلت من مجتمع الصحراء موضوعا للدراسة والبحث، غايتها فهم بنيته السوسيو ثقافية لكون هذه المجتمعات اعتادت على المشافهة الثقافية التي كونت مخزونها الثقافي.

- جاءت هذه الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية بقدر ما تساهم في المعرفة العلمية إلا أنها تستثمر في فرض الهيمنة الاستعمارية على الفئات الاجتماعية ومعرفة نقاط ضعفها وتوظيفها في خدمة المشروع الاستيطاني.

- عرض المقال تاريخية ديوان سيدي بلال مرجعا أصوله إلى ثقافة أرواحية بدائية إفريقية محملة بنوازع دينية غريبة اتخذت من بلال الحبشي معلما روحيا لها.

- سرد الباحث مجموعة من الألفاظ المتداولة في حضرة ديوان سيدي بلال تكاد تكون ألفاظا رمزية متعارف عليها.

4. المناقشة:

عالجت المجلة الإفريقية الظواهر الاجتماعية الجزائرية في سياقها التاريخي ومن زاوية ما كان يراه الإنسان الغربي دون التعمق في خصوصيات المجتمع الجزائري، فظاهرة الديوان من الظواهر الاجتماعية الفنية التي خص بها ذوي الأصول الإفريقية، ورغم القيمة العلمية الوصفية التي قدمتها المجلة الإفريقية إلا أنها لم تعالج العلاقة الاجتماعية بين السود والعرب معالجة وافية، وكل ما عرضه الباحث في هذا الشأن هو ما ذكره على نحو يوحى بوجود "حقد دفين بين السود والعرب"، وإصدار أحكام مطلقة لم تحف فضل السلطة الفرنسية الكولونيالية في إلغاء الرق ومنعه إذ نرى هذا المنع جاء خدمة للمصالح الاستعمارية في السودان الغربي.

ومن الملاحظ أن هذه الدراسة غلب عليها الجانب السردي والوصفي تضمنت أطرا زمنية باهتة، وتكتمت عن البعد الصوفي الإسلامي الذي احتواه الديوان باعتبار أن المذهب الصوفي كان له الانتشار الواسع في السودان الغربي والشرقي، ولا غرابة أن التصوف الإسلامي كان له تأثيره في الثقافة الإفريقية، عبرت عنه الحضرة الصوفية بروح إفريقية المحملة لثقافتها الأصلية وإلا كيف نفسر انتشار الديوان في المجتمع الشمال إفريقي وإقبال الجمهور عليه في احتفالاتهم الدينية والفصلية.

5.الخلاصة:

إن المقالات المعروضة في المجلة الإفريقية حول تاريخ وثقافة الصحراء عامة وتاريخ الجنوب الوهراني خاصة ذات أهمية مصدرية في الكتابة التاريخية إذ يجدر بنا إعادة قراءتها وفهمها على نحو يساهم في إثراء البحث التاريخي والاجتماعي والثقافي لمجتمعات الصحراء، وإن نموذجا مما عرضناه: "الإخوان السود في الجزائر ديوان سيدي بلال". يظهر بوضوح أن الديوان بوجهه الثقافي والفني انتقل إلى الجزائر من موطنه الأصلي الإفريقي، وأن السبق لا يرجع إلى بلد مغربي دون الآخر.

6.الإحالات والمراجع:

- إسماعيل،عربي .(2007). الدراسات العربية في عهد الاحتلال الفرنسي .الجزائر :المكتبة الوطنية الجزائرية.
أبو القاسم سعد الله .(1998). تاريخ الجزائر الثقافي ج .(06) بيروت :دار الغرب الاسلامي.
بوروبة، ح .(2015). الدراسات اللهجية في المجلة الإفريقية .مجلة أبوليوس..02(01)
رزوق، ج .(مارس 2015). اهتمام الكتابات الفرنسية بالمخطوطات المحلية المجلة الإفريقية انموذجا .مجلة رفوف.
هلايلي، م .ص.-ج.(مارس 2020) انتاج المعرفة التاريخية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية .مجلة الحوار المتوسطي.(11(01)

- Cancel, E. s.-3. (1908). Etude sur le dialecte de tebelbala. *Revue Africaine*(52), 302-347.
Basset, R. (1905). La légende Bent El Khass. *Revue Africaine*(49), 18-34.
A.Brbrugger. (1856). De la société historique Algérinne. *Revue Africaine*(01), 05.
A.Coyane. (1890). Le Sahara de l'ouest et une partie du Sahara occidental. *Revue Africaine*(34), 43-54.
Bassé.André. (1942). comptes rendus ,George Gorree,les amitiés saharienne du Père de Foucauld,2vol,p.286 et p.376 ,Rabat. *Revue Africaine*(86), 317-318.
E.Dermenghem. (1953). Les confréries noire en Algérie Diwans sidi Blal. *Revue Africaine*(97), 314-367.
Flamand. (1906). Nouvelles recherches sur le Préhistoire dans le Sahara dans le haut pays Orannais. (50), 204-232.
Martin.Alfred. (1893). L'action française dans le Sahara. *Revue Africaine*(37), 330-351.
René.Maire-E.Wilczek. (1935). Sur la végétation du Sahara occidental. *Revue Africaine*(76), 91-93.
Teissier, O. (1876). : *Biographie de M. Mercier-Lacombe*, . Draguignan: Typographie.de
C.et.A.Latil.Esplenade.

